حكاية القطار

نزار عباس

في السجن، وقبل أن يخرج بليلة واحدة، التقاه، عانقه. وبعد عبارات مليئة بلوعة الفراق، بعد صحبة طويلة، قال له: «اسمع، ستخرج من السجن الصغير، لتدخل السجن الكبير». وقال له أيضاً: «لا يشغلك شيء عن هموم الوطن».

قال لنفسه: «محمد المحمود رجل كبير، ولكنّ مشكلته أنه يحبّ العبارات الجاهزة والوصايا!» ابتسم وهو ينظر إليه، ثم يبتعد عنه ليودع بقية الأصدقاء.

في «السجن الكبير» وجد العائلة الفقيرة والغلاء والبطالة. وبصعوبة، وجد عملاً: كاتباً للحسابات في شركة صغيرة، تبيع أدوات كهربائية بالتقسيط. وكانت السنوات تمرّ، والعملُ من الصباح إلى المساء يهدُّ قواه، والأرقام أتلفت عينيه. ولكنه كان يجد راحة صغيرة، حين يخرج بعد انتهاء العمل، ليدخل الحانة القريبة، «حانة الصفاء»، ليتناول كأسين أو ثلاثاً، فيتخدّر قليلاً ثم يذهب إلى البيت، ليأكل لقمة وينام.

واستمر أعواماً على هذه الحالة.

في تلك الحانة، التقى ذات ليلة بأحد رفاق السجن، فأخبره بأنّ محمد المحمود قد خرج قبل انتهاء موته، وأنّه سلَّم كلَّ ما يعرف..

ابتسم بألم، وقال لنفسه: «إنها القصة التي لا تنتهي.. هو القطار يتوقف مرة أخرى!»

لعن الساعة التي التقى فيها بالمحمود. فلقد كلَّفَتْه أجمل سنوات العمر. طلب كأساً أخرى، ثم خرج يجرُّ رجليه في شوارع المدينة التي حلم يوماً بأن يحيلها إلى جنة وارفة.

بعد أيام من هذا اللقاء، وحين رفع رأسه عن دفتر الحسابات الذي يغطي المائدة، وجد أمامه محمد المحمود. عانقه ببرود واضح، ثم دعاه للجلوس.

قال المحمود بعد ثرثرة عن أيام السجن: «إنّ صفحةً قد طُويتْ، وعلينا أن نعمل من جديد، فهل أنت على استعداد؟»

استرجع ما سمعه عنه، وتساءل مع نفسه: «أهو فخّ جديد، أم أنّ ما سمعه كان مجرد أكاذيب»؟

نظر إليه بتمعن، كأنه يراه للمرة الأولى، كأنه يريد أن يعرف الحقيقة. ولكنْ هل تهمه هذه الحقيقة؟ التفت إلى ناحية الشارع الذي يضجُّ بالناس والذي يفصله عنه زجاجُ الواجهة الرقيق، وأشار بيده إلى المارّة وقال: «لست على استعداد لتسليم هؤلاء»...

قال المحمود: «لم أفهم».

أجابه: «لستُ أقوى منك، وكنتَ مثَلي الأعلى!»

أحنى المحمود رأسه قليلاً وقال بصوت منخفض: «للجسد حدودٌ للتحمل!»

أجابه: «أستطيع أنا أيضاً أن أكرِّر هذه العبارة.. ثم إذا كان الأمر كذلك، فلماذا العودة؟»

رفع المحمود رأسه، واضعاً ابتسامة على وجهه، وقال: «سمعتُ أنك ترتاد حانة الصفاء».

قال: «أجل، كل يوم. أدعوك هذه الليلة إلى كأسٍ فيها».

خرجا معاً، وكان الليل يُطْبق على المدينة.

في الحانة، تحدَّثا طويلاً عن السجن الكبير والصغير وأضافا إليه سجن العائلة. ثم اتفقا في النهاية، كصديقين قديمين، أنهما قدَّما كُلَّ ما يستطيعانه، وأنَّ ما قاله أحدُ الروّاد يبقى صحيحاً: «إنّ القطار يتجه إلى أمام، ويواصل السير ولو نزل منه هذا الراكبُ أو ذاك، في تلك المحطة أو تلك».

بغداد

صفعة بهلول

محمود عزوز

... واختلس النظر إليهم. كانت أطرافهم تتوتر انفعالاً وحماسة، وعيونُهُم تسكنها لهفة غريبة. هو الذي لم يضرب أحداً قطّ، ودأب منذ الصغر على مهادنة خصومه، بل كاد من فرط طيبته أن يستجدي الظلم لنفسه في كثير من الأحيان؛ فقد كان يتشبّث بثياب أقرانه يتلقى لكماتهم وركلاتهم في وجهه بـ «الروسية» حتى يشرّ منه الدم، ويظل ممسكاً بخناقهم يأبَى تركها الا إذا كفوا عنه.

رفع في الهواء يداً خشنة ثقيلة كمطرقة، فخفق قلبه بقوةٍ والتقتْ لأول مرة العينُ بالعين. راعته هيبته ووسامتُه وعيناه الزرقاوان وأنفُهُ المسحوب إلى الأمام بغير غلظة ولا ضخامة. وكانت عباءته من الصوف المعتبر، تفوح منها رائحة المسك. تذكر عمره الطويل الذي مرّ دون أن يجرؤ على النظر إليه. قال إنّ ابن الأكابر لا تخطئه العين الذي مرّ دون أن يجرؤ على النظر إليه. قال إنّ ابن الأكابر لا تخطئه العين حتى لو لم تَحْظ برؤيته من قبل. حبس الجميع أنفاسهم وترددت نظراتهم بين الاثنين. تسرب الخوف الى يده وأصابها بالشلل فظلت معلقةً في الهواء، بينما الخد الأملس ينتظر صَفْعَهُ...

ـ نَزِّلْ إيدك يابن ستوته، الكبير كبير بَرْضُه.

صاحتْ أمّ عبّود بصوتها المبحوح بعد أن ضاقت ذرعاً بالمهزلة على حد قولها التي واكبتها حتى بلغتْ ذروتها وصار